بـ اء العقل

يعوِّل الإسلام كثيرًا على العقل في فهم مرامي الشريعة السمحة، وفي فهم حقائق الوجود ومجريات الأحداث. ولذا فقد كثر الحديث في القرآن الكريم عن التدبر والتفكير واستخدام الطاقات الذهنية في كل شؤون الحياة. وتفيد نصوص كثيرة عدم استقامة تدين الإنسان وعدم استقامة أمور دنياه وعلاقته بربه ـسبحانهـ وبالناس من حوله...من غير اللجوء إلى العقل والمعطيات الفكرية الراسخة بوصفها محكات جديرة بالثقة. ومن تلك النصوص قوله ـسبحانهـ: {**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياًّ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**} [**الزخرف**: 3]، وقوله: {**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**} [**الملك**: 10]، وقوله: {**وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**} [يونس:100]، وقوله: {**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ**} [**الحشر**: 14].

قد كان الناس يتساءلون منذ قديم الزمان عما إذا كان العلم أكثر إفادة لحياة الإنسان أم العقل؟ ويحاول كثيرون أن يبرهنوا على فضل أحدهما على الآخر. اليوم اختلف الأمر بعض الشيء؛ حيث إن انتشار المعلومات وتدفقها وسهولة الحصول عليها قلل من أهميتها؛ حيث لم تعد تشكل أهم العلامات الفارقة بين الناس، وهذا دفع كثيرًا من الباحثين إلى أن يعطوا أهمية أكبر للتفكير واستخدام الإمكانات الذهنية في تعليل الأحداث، وتحليل المعلومات وتوظيفها.

ومع أن كل الأبناء يتحسن مستواهم الفكري مع مرور الأيام إلا أن عدم إعطاء اهتمام خاص لهذا الجانب؛ يجعل ما يحصلون عليه أقل بكثير مما هو موجود لدى أبناء الأمم المتقدمة؛ حيث إن معظم المدارس والجامعات العربية والإسلامية خالية من أي مواد دراسية تُعلِّم الأولاد كيف يتخلصون من الأخطاء الفكرية، وكيف يفكرون بطريقة صحيحة، مع أنهم يدرسون الكثير من المواد التي لا تغني ولا تسمن من جوع. ونحن لا نستطيع في كتاب كهذا أن

نتناول كل ما يجب عمله من أجل بناء عقول الطلاب على النحو المطلوب، فلنقتصر إذن على ما نراه مهمًّا في هذا الشأن.

تنقية العقل أولاً:

إننا ـمعاشر المُعلِّمينـ كثيرًا ما نتعامل مع عقول الطلاب الصغار منهم والكبار على أنها عقول فارغة من أي رواسب فكرية أو معطيات عقلية جاهزة، ولا تحتاج سوى أن نصب فيها المعلومات. وبناءً على هذا فإننا قلما نسعى إلى تنقية تلك العقول من الأفكار الخاطئة، ومن العادات الفكرية السيئة التي اكتسبوها من بيئاتهم، وتلك التي تتولد آليًّا من استخدام العقل، مع أن من الثابت أن كل الجهود في تحسين مستوى التفكير تذهب أدراج الرياح إذا لم تُسبق بمحاولات جادة لتخليص عقول الناشئة من طرق التفكير المغلوطة، ومن الأفكار التي تشوِّه رؤيتهم للحياة والأشياء. ومن تلك الأفكار: المبالغة، والتحيز، والتعصب، والخضوع للعاطفة، والوقوع تحت تأثير الشائعات، والرؤية النصفية، وتفسير الظواهر الكبرى بعامل واحد، وما شابه ذلك.

إن تشييد البناء العقلي يشبه عمل الفلاح في زراعة أرضه، فهو قبل أن يلقي بذوره يفلح الأرض ويقلبها ويزيل ما فيها من أعشاب ضارة. وهذا ما يجب أن نفعله من خلال تركيز النقد على عيوب التفكير وتشوهات العقل.

التفكير أثناء القراءة:

إذا نظرنا في حياتنا وجدنا أن التقدم العلمي لدينا أسرع من التقدم العقلي بما لا يقاس؛ حيث نجد المتعلم والأمي والكبير والصغير يسردون الكثير الكثير من المعلومات في كل شؤون الحياة، على حين أننا عندما نبدأ بمعالجة بعض المشكلات أو تقييم بعض الأحداث نكشف عن قصور ذهني مريع. ومع أنني لا أعرف بدقة كل أسباب ذلك إلا أني أعتقد أن اقتصارنا على القراءة والسماع

دون التفكير فيما نقرأ ونسمع يُعَدُّ من الأسباب الجوهرية لذلك. وهذه الوضعية ناتجة من عدم وجود الاهتمام الكافي بمسألة التفكير، ومن صعوبة ممارسته إذا ما قورنت بصعوبة القراءة.

إذا أردنا تحسين مستوى التقدم العقلي لدى طلابنا؛ فإن علينا أن نحاول إثارة اهتمام الطلاب بقضية التفكير وتعويدهم ممارسته خلال الدراسة في الفصول، كلما وجدنا مناسبة لذلك. وسيكون من المفيد جدًّا ترك عشر دقائق في آخر كل حصة دراسية للتفكير في المسائل الجديدة التي شرحها لهم المُعلِّم أثناء الحصة. ويمكن أن يسلك التفكير فيها مسالك عدة.

فإذا كان الدرس حول أحداث سقوط دولة من الدول ـمثلاًـ؛ فإنه يمكن للتفكير أن ينشط حول الأمور الآتية:

- مدى صحة المعلومات التي صورت حيثيات سقوط تلك الدولة.
- هل هناك أخبار أخرى غير ما ذكر في الكتاب؛ يمكنها تقديم رؤية مغايرة أو معدلة؟
- ما المحركات الأساسية التي كانت تدفع تلك الدولة في الاتجاه الذي سارت فيه؛ هل هي عقدية أو اقتصادية أو سياسية، أو هي مزيج من كل ذلك؟
- ما الأخطاء التي وقعت فيها تلك الدولة، وكان في إمكانها تجنبها؟
- ما العظات والدروس التي يمكن أن نستفيدها من سقوط تلك الدولة؟
- ما الآثار الإيجابية والسلبية التي تركتها أعمال تلك الدولة في التاريخ الإنساني العام؟

وهكذا يمكن أن نثير التساؤلات حول كل الموضوعات التي يدرسها الطلاب، وفي كل المواد. وإذا نجحنا في ذلك نكون قد استطعنا مزج مهارات التفكير الإبداعي والنقدي بالمقررات الدراسية. وهذا وحده هو الذي يحوّل المعلومات من عبء على الذاكرة، ومن أشياء لا معنى لها إلى وسائل لتنمية العقلية وتطويرها، لكن لن نستطيع أن نفعل ذلك إلا إذا خلصنا وعينا من الافتتان بالكم المعلوماتي الذي يتلقاه الطلاب؛ لأن نجاحنا اليوم ليس متوقفًا على كمية المعلومات التي نختزنها في ذاكرتنا، ولكن على نوعية تلك المعلومات، وعلى طريقة إدخالها إلى أذهاننا، ثم على تعاملنا معها واستفادتنا منها. وهذا ما يجب أن يلمسه طلابنا من طريقة تعليمنا لهم.

اكتشاف نقطة التفوق:

الفتى الذي يبدو لنا على أنه عادي، لا يكون عاديًّا في كل جوانب شخصيته. إنه يملك شيئًا يتفوق فيه، ويميزه عن باقي أقرانه؛ وذلك لأن الذكاء ليس نوعًا واحدًا، فهناك الذكاء اللغوي، والذكاء الرياضي، والذكاء الاجتماعي والتجاري، وهناك ذكاء في فهم الذات، وذكاء في فهم التاريخ... والمشكل دائمًا يكمن في عدم وجود من ينبه الناشئ إلى نقطة التفوق لديه أو عدم توفر الظروف التي تبرز الجانب اللامع في شخصيته. وبما أن سوء الفهم يشكل الأساس لكل المشكلات فإن كثيرًا من قصورنا في التعامل مع الإبداع؛ ربما كان يعود إلى سوء فهمنا للذكاء والإبداع؛ حيث يظن كثير من الآباء وبعض المُعلِّمين أن الذكي ذكي في كل شيء، والمبدع الحقيقي يتجلى إبداعه في كل المواد التي يدرسها. وهذا غير صحيح، فلو أننا نظرنا في تاريخ نوابغ العالم لوجدنا أنهم في جوانب عديدة من حياتهم كانوا عاديين أو أقل، ولكن اهتمامهم العظيم والبالغ بالجانب المبدع لديهم هو الذي أوصلهم إلى ما وصلوا إليه.

إن امتحانات الذكاء يمكن أن تساعد في كشف ذلك الجانب المتوهج، ولكن يظل للممارسة الحظ الأوفر في تعريف الطالب على المجال الذي يملك فيه قدرات متميزة. ودور المُعلِّم يجب أن ينصبَّ على التوجيه والتحفيز والمتابعة والتقييم. وهذه كلها إذا تمت بطريقة صحيحة تساعد الطالب أيما مساعدة على الاستمرار في تنمية مواهبه وقدراته الخاصة.

صحة التصورات:

إذا تأملنا في المناظرات العلمية التي كانت تجري بين علمائنا قديمًا، وإذا دققنا في المناقشات العفوية التي تحدث في مجالس السمر ـ لوجدنا بينها قاسمًا مشتركًا؛ هو التركيز على بحث الأدلة والبراهين التي يدلي بها كل طرف. وقلَّما نهتم بمسألة صحة التصورات التي تحدد الفضاء الذي تولد فيه الأدلة والبراهين. إذا كان التصور فاسدًا، أو كنا اخترنا منطقة الانتباه الخاطئة؛ فإن نتائج تفكيرنا سوف تكون عليلة وبعيدة عن الحقيقة والواقع. إن قدرتنا على الإتيان بالبراهين كبيرة، لكن إذا لم يكن التصور صحيحًا؛ فإن عملنا في الاستدلال على ما نريد يكون أشبه بعمل الطائر حين يبيض في غير عشه!

لذا كان من المهم أن نثري خبرات طلابنا حول فحص تصوراتهم، وحول المداخل التي يختارونها في معالجة مشكلة من المشكلات، وزيادة وعيهم بالأفكار المسيطرة عليهم، والتي كثيرًا ما تكون غير صالحة ولا صادقة.

إن الحصول على تصورات صحيحة لكل قضية نعالجها؛ قد لا يكون متيسرًا في كل وقت، ولكن ما ينبغي أن نسعى إليه هو امتلاك طرق جيدة في بناء تصوراتنا؛ فكيف يمكن الحصول على ذلك؟

إن شرح الأفكار من خلال التدريب من أفضل الطرق التي يمكن أن نتبعها في التعليم، ولنضرب مثالين على ذلك:

1ـ نطرح أمام الطلاب موضوعًا للنقاش، ولنفترض أن ذلك الموضوع يدور حول تحليل نزاع يدور بين طائفتين من المسلمين. بعد أن نعطي الطلاب معلومات جيدة حول حيثيات ذلك الصراع وأوضاعه، نطلب منهم أن يذكروا تصوراتهم حول أسباب ذلك الصراع والعوامل المؤججة له. وبعد انتهاء الطلاب من ذكر تصوراتهم يضيف المُعلِّم تصوراته إلى تصوراتهم، ثم نبدأ المناقشة لتلك التصورات. وسوف نجد من يقول: إن الخلاف نشب بينهم بسبب التنوع العرقي، ونجد من يقول: إنه نزاع على المراعي والمياه، ومن يقول: إن النزاع احتدم بسبب قتل واحد من هذه الطائفة شخصًا من الطائفة الأخرى، ومن يقول: إن اختلافهم يعود إلى ضعف التدين، أو إلى قلة التهذيب الأسري أو إلى وحشية البيئة التي يعيشون فيها... ومن الجائز أن ينشأ ذلك النزاع بسبب من الأسباب، ثم يتطور لتتحكم فيه فيما بعد عوامل جديدة.

بعد ذلك يبدأ البحث في تمحيص كل تصور على حدة؛ من أجل تحديد التصور الذي يمكن أن يكون أقرب إلى الواقع. وقد ينتهي بنا البحث إلى أن الصراع لم ينشأ بسبب عامل واحد، ولكن بسبب عدد من العوامل. وحين يكون الأمر كذلك فإن علينا أن نحاول تحديد وزن كل عامل من العوامل المذكورة، ومدى مساهمته في حدوث ذلك الصراع.

ليس المقصود هنا أن نوجد حلاًّ، ولا أن نصل إلى الحق القطعي، وإنما المقصود أن نوضح للطلاب الآتي:

- كل تصور من التصورات المطروحة قابل للجدل والنقاش ومن ثم النفي.
- يمكن أن تكون هناك عوامل أخرى أدت إلى النزاع، ولم يذكرها أحد.
- النتائج التي انتهينا إليها في تحديد عوامل الصراع، وتحديد وزن كل عامل نتائج ظنية.

- البحث سيظل ناقصًا حتى نسمع من الفريقين المتقاتلين تحليلهم لأسباب الصراع.
- قد يتبدى الصراع على غير حقيقته، فنظن أنه صراع عقدي، وهو صراع عرقي. أو يتبدى على أنه صراع اقتصادي، وهو امتداد لصراع تاريخي.

2ـ يقرأ الطلاب مقالاً عن ظاهرة تأخر طلاب إحدى المدارس في الحضور صباحًا، ويطلب من كل واحد منهم أن يكتشف الفكرة المسيطرة على الكاتب في تحليله لتلك الظاهرة. ومن باب المساعدة لهم يمكن أن نعرض عددًا من الأفكار التي تصفي القضية على النحو الآتي:

- بُعْد المدرسة عن مساكن طلابها.
- وعورة الطريق المؤدي إليها؛ مما يجعل وسائل النقل تسير ببطء.
- ازدحام الشوارع المؤدية إليها بالسيارات أو المارة.
- سهر الطلاب إلى ساعة متأخرة؛ مما يجعل الطلاب يتأخرون في الاستيقاظ.
- تأخر الأمهات أو الآباء في مساعدة الأطفال على الاستعداد للذهاب إلى المدرسة.
- تضايق الطلاب من (الطابور) الصباحي؛ مما يجعلهم يتأخرون عمدًا.
- كثرة أعطال وسائل النقل الجماعي التي تنقل الطلاب، أو عدم انضباطها في مواعيدها.
- تأخر الطلاب عن الحضور صباحًا مشكلة غير قابلة للحل.
- تأخر الطلاب لا يشكل مشكلة.
- نقل المدرسة من مكانها إلى مكان آخر.

• جعل دوامها مختلفًا عن دوام غيرها تفاديًا للزحام.

بعد استعراض اختيارات الطلاب يمكن أن تُعرَض للمناقشة من أجل استبعاد الغريب منها وترجيح القوي، وما يمكن أن يكون أقرب إلى الحقيقة والواقع.

قضية تنبيه الوعي إلى نوعية الفكرة المسيطرة في مقال أو عمل أو اتجاه... ومحاولة تحديدها على نحو دقيق من المسائل المهمة جدًّا في بناء التصور الصحيح لدى الصغار والكبار أيضًا؛ لأن عدم تحديدها يجعل فهمنا لمحمل القضية ناقصًا أو مشوهًا. ومن الصعب جدًّا تغيير الفكرة المسيطرة أو إيجاد بديل عنها مهما كانت خاطئة إذا لم يتم اكتشافها. بل إن الفكرة المسيطرة حين تكون غامضة يتم توليد أفكار أخرى يُظن أنها بديلة عنها، ولكنها في الحقيقة تابعة لها وتدور في فلكها.

إذا تأملنا في الأخطاء، والكوارث، وحالات الإخفاق الكبرى والشديدة؛ لوجدنا أن الأفكار التي كانت تسيطر على من لهم علاقة بها كانت أفكارًا خاطئة لم يمكن اكتشافها، أو لم يمكن إقناع أصحابها بأنها خاطئة. إن الذي أدمن القمار واللعب بالميسر يخضع لفكرة خاطئة هي: أن ضربة الحظ الكبرى التي سيربح من ورائها الأرباح الطائلة، والتي سيعوض من خلالها كل خسائره قادمة لا محالة؛ ولذا فإنه يستمر في اللعب مهما كانت خسائره عظيمة.

القائد العسكري الذي هُزمت فيالقه العظيمة، واستمر في الحرب كثيرًا ما يعلق كل نتائج المعركة على كتيبة متميزة في تدريبها وتسليحها ـ هذا القائد تسيطر عليه فكرة (النوعية)، فهو يتصرف على أساسها مهما كانت الدلائل التي تشير إلى أن من الخير له أن ينسحب من المعركة لينقذ ما يمكن إنقاذه من قواته، وهكذا...

إن مجرد فتح الأذهان لوجود تفسيرات عديدة لشيء من الأشياء؛ يُعَدّ في حد ذاته تقدمًا عقليًّا؛ يساعد في تخليص الذهنية من مخاطر الانغلاق على تفسير وحيد قد يكون خاطئًا.

مناخ الإبداع:

العقل الإسلامي عقل أخلاقي، فنحن ننظر نظرة ملؤها الاحترام والتقدير للقيم الأخلاقية؛ مثل العدل والمساواة والإحسان والوفاء... ولا نعبأ كثيرًا بالقيم العقلية كالذكاء والإبداع والفهم العميق... بل ربما نظرنا إلى هذه الأمور بشيء من الريبة؛ حيث يرى بعض الناس في الذكاء شيئًا مرادفًا للدهاء والاحتيال! وربما كانت نظرتنا للأذكياء والمبدعين مخلوطة بشيء من الغبطة والحسد. ومهما يكن الأمر، فنحن بحاجة إلى أن نعيد النظر في هذا الأمر؛ حيث إن أمة الإسلام تعاني من مشكلات كثيرة، ولها أيضًا طموحات وآمال عريضة؛ ومن العسير تحقيق هذه والخلاص من تلك من غير الإبداع، والتوظيف المكثف للطاقات والإمكانات العقلية التي نملكها.

حين نحترم الإبداع، ونحفز عليه، ونوجد الأطر التي تخدمه وترعاه، يظهر المبدعون، وتسري في الأمة حيوية جديدة. مع التحفيز والتقدير لا بد من توفير شرطين أساسيين من أجل تشكيل مناخ الإبداع، وهذان الشرطان هما:

1ـ الأمن؛ فالخائف ينكمش بدل أن يبدع، ولذا فإن استخدام الأبوين للتخويف والزجر يحبط القوى المبدعة في الطفل، ويصبح مآلها إلى الضمور. واستهزاء المُعلِّم بالطالب وتوبيخه أمام زملائه، وتيئيسه من التفوق؛ يؤدي إلى النتيجة نفسها؛ حيث ينصرف اهتمام الطالب عن إبصار كل نقاط التفوق لديه، لينشغل بكيفية حماية نفسه من الإهانة!

2ـ الحرية؛ وهي شرط مهم للإبداع؛ لأن كثرة القيود المفروضة على الطالب تجعله متوجسًا من كل فعل وكل كلمة. ونحن نفرق بين الفوضى والحرية، وندعو إلى الإبداع الملتزم بضوابط الشريعة الغراء، بل نرى أن الإبداع لا يكون إبداعًا حقيقيًّا لمجرد الإتيان بشيء جديد مهما كان مخربًا ومؤذيًا ـكما يتجه كثير من العلمانيينـ وإنما يكون الجديد إبداعًا إذا خدم أهداف الأمة وتأطر بثوابتها، وساعد على توحيد كلمتها ولـــمِّ شعثها. ومع هذا فلا بد من القول: إن بعضنا يتخوف في بعض الأحيان من أشياء لا تدعو إلى الخوف، ويحيل بعض المسائل الظنية المختلف فيها أو بعض الأمور ذات الدلالة الرمزية إلى مسائل قطعية لا يصح الاقتراب منها. وبعض الخيرين الذين يديرون مؤسسات تربوية يبالغون في الأخذ بمبدأ سد الذرائع، فيمنعون بعض المباحات، ويضبطون الأمور إلى حد التنفير. وكثيرًا ما تعاني مجتمعاتنا من الغموض؛ حيث تنطمس الحدود الفاصلة بين الجائز والممنوع والنافع والضار؛ مما يجعل الناس خائفين من أشياء عديدة لا تخيف ولا ينبغي أن تخيف أحدًا.

إن تغيير نظرتنا للإبداع، ومنحه أهمية جديدة؛ مما يساعدنا على توفير أجوائه وتحقيق شروطه.

الإبداع غير مطابق للذكاء:

من الأخطاء التي وقع فيها الناس قديمًا ـوما يزالونـ الاعتقاد بأن كل ذكي مبدع، وأن كل مبدع ذكي. وبما أن كثيرًا من الناس يعتقد أن الذكاء موهبة فهم يعتقدون أنه غير قابل للتنمية. وهذا كله يعني أن الإبداع يتسم بالجمود، كما أنه لا يمكن تعلمه؛ ولذا فهو لأناس خاصين هم الموهوبون! وهذا الاعتقاد خاطئ تمامًا، فالذكاء يشكل عنصرًا مهمًّا في الإبداع، لكن لا يكون كل ذكي مبدعًا. وإذا قسنا ذكاء الطلاب ونظرنا إلى إبداعاتهم، فإننا نجد أن المبدعين لا

يشكلون سوى نسبة قليلة جدًّا من الأذكياء. وما ذلك إلا لأن الإبداع يتطلب أشياء أخرى غير الذكاء، سنتحدث ـإن شاء اللهـ عن أهمها.

الذكاء ينمو بالتدريب وبالتعليم الذي تستخدم فيه الوسائل التعليمية الجيدة. والإبداع يُعلَّم لأنه يحتاج إلى أن يتعود الإنسان بعض العادات، ويتخلق ببعض الأخلاق، ويقوم ببعض الأعمال. ولن ينتشر الإبداع في الجيل إلا إذا نظرنا إليه نظرة جديدة، نظرة تنطلق من أن الإبداع ليس فضيلة يتصف بها بعض الأذكياء، وإنما هو حاجة لكل طالب من الطلاب. ولا بد من تقرير هذه الحقيقة، والتبشير بها على كل صعيد وبكل وسيلة.

يبدأ تفتح عقل الطالب نحو الإبداع من خلال إبداعات مُعلِّميه وأساتذته، وذلك في اللحظة التي يرى، أو يسمع فيها ما يبهر، وينتزع الإعجاب الشديد. ولذا فإن تفجير الطاقات الإبداعية، وتكوين التشوق إلى الأشياء الجديدة ـ شيء يصنعه المُعلِّم من خلال إبداعاته.

والطالب الذي يتفاعل مع إبداعات مُعلِّميه، وتغمره مشاعر البهجة والغبطة بما يرى ويسمع، يبدأ بالتفاعل مع الإبداعات التي يراها من زملائه ومعارفه وغيرهم؛ ويتكون في عقله ونفسه ما يشبه غليان المرجل، إنه الانفعال الشديد الذي يبحث عن شيء يُسكب فيه. وهنا تأتي المهمة الثانية للمُعلِّم، وهي مساعدة الطالب على العثور على منفذ بنَّاء وملائم لذلك الفوران من الأفكار والأحاسيس الجياشة. يقول أحد المشتغلين بقضايا الإبداع: (إن عقل الطفل ابن الخامسة يشبه بركانًا له فوهتان، واحدة هدامة والأخرى مبدعة. ونحن بمقدار ما نوسع مدى الفوهة المبدعة؛ نوقف نمو الفوهة الهدامة).

هذا يعني أن عدم اهتمامنا بالذين يملكون إمكانات إبداعية؛ لا يحرمنا ويحرمهم من ثمرات تلك الإمكانات فحسب، وإنما يتيح لها أن تتجه اتجاهات

تخريبية. وما ذلك إلا لأن الإبداع لا يملك أي أخلاقية خاصة تجعله يتجه نحو ما هو خير ونافع؛ فهو يظل عبارة عن إمكانية قابلة للتوظيف المتعدد.

شيء آخر يحتاج منا إلى انتباه، هو أن الطاقة الإبداعية في نفوس الناشئة لا تحتاج إلى توجيه فقط، وإنما تحتاج إلى تنظيم أيضًا، فنحن مع أننا مطالبون بتنشيط الدفق الإبداعي وتحفيزه إلا أن من المهم أن نعلم أن التدفق الإبداعي إذا لم ينظم؛ فإنه قلَّما يأتي بنتائج ذات قيمة؛ فالذي يملك موهبة شعرية فائقة _مثلاً_ لا يستفيد منها على الوجه المأمول إذا لم يثقف نفسه في مجال معرفي معين، يوظف فيه مقدرته على قرض الشعر. والذي يملك موهبة في الإدارة لا يستفيد منها إذا لم يقرأ بشكل منظم أيضًا في علم الإدارة أو أحد فروعه وهكذا...

إن تنظيم الدفق الإبداعي يقتضي فيما يقتضيه انشغال المبدع بمشروعٍ ما يخصص له معظم أوقات فراغه؛ وبذلك لا تذهب طاقاته وأوقاته في تلبية حاجات طارئة فرضتها الظروف المعيشية أو الاجتماعية أو عمل أشياء تافهة غير ذات معنى. وإذا تأملنا جيدًا في هذه النقطة وجدنا أن معظم الناس، من مبدعين وغير مبدعين، يخسرون خسائر فادحة نتيجة عدم وجود شيء (استراتيجي) في حياتهم، فيبددون أعمارهم بالانشغال بأمور صغيرة تجعلهم لا ينتجون أي شيء ذي قيمة؛ مع أن كثيرين منهم قادرون على إنجاز أشياء عظيمة.

من أجل الإبداع:

انطلاقًا من أن الحصول على إنتاج إبداعي لا يتوقف على الذكاء الخارق، وتأسيسًا على أن كل طالب بحاجة إلى أن يكون مبدعًا؛ فإنني أرى أن نحوّل حديثنا عن سمات المبدعين بوصفها أشياء خَلْقية إلى أشياء يمكن إيجادها وغرسها. ومع أن ذلك يتعذر في بعضها لأنه موروث عن الآباء والأجداد إلا أن

معظمها يستجيب لما نريد ويقبله. ولذا فإني سأسوق بعضًا من السمات التي علينا أن نرسخها في شخصية الطالب، لنساعده على الاستفادة من مواهبه على أفضل وجه ممكن. وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:

1ـ من المهم في مسألة رعاية الإبداع إشعار النابه أنه شخص مهم يعقد أهله ومُعلِّموه عليه آمالاً لا يعقدونها على كل الأبناء والطلاب. ويمكن استغلال الفرص للتعبير عن ذلك، مثل وقت فوزه بمسابقة، ووقت استلامه نتيجة امتحان، ووقت عرضه لفكرة جيدة ...

ومما يُشعر الطالب أنه مهم طلب رأيه داخل الفصل وخارجه في مسألة خلافية، أو في مشكلة من المشكلات إلخ... بعض الآباء والمُعلِّمين لا يرغبون في التعبير عن مشاعرهم تجاه النابهين؛ حتى لا يصابوا بالغرور أو الكبر، أو حتى لا يعوِّلوا على ذكائهم، ويُقصِّروا في الدراسة وتحصيل العلم. وهذا التخوف في محله؛ ولذا فإن من المهم قرن الثناء والتشجيع بالحث على التفوق، كأن نقول له: إمكانات فلان أقل من إمكاناتك، وهو حصل على درجات أفضل من درجاتك؛ وأنت تستحق فوزًا أحسن لو بذلت جهدًا أكبر. وكأن نقول له: يمكن أن تكون في وضعية أفضل من هذه الوضعية الجيدة لو أنك وضعت لنفسك برنامجًا للقراءة؛ وهكذا...

من المهم ونحن نُشعر الطالب بأهميته أن نستهدف تعزيز ثقته بنفسه، فالثقة بالنفس ضرورية لتوسيع الطموحات، وخوض التجارب، وإذكاء العزيمة. الثقة بالنفس لا تعني الغرور، كما لا تعني الوقاحة أو التهور، إنها تعني يقين الشخص بأنه قادر على القيام بأمور قد لا يستطيع كل الأقران القيام بها، كما تعني إحساسًا قويًّا بالقدرة على التقدم، والتفوق على الذات، والصمود في وجه التحديات. وينبغي أن يركز خطابنا التشجيعي لمن نربيهم على تنمية هذه

المعاني، وذكر بعض القصص التاريخية والواقعية التي تقررها وتشير إليها؛ فالقصص والحكايات كثيرًا ما تساعد على إزالة الأوهام، وكثيرًا ما تحوِّل الدلالة الرمزية لدى الناشئ، فتتغير نظرته إلى الأشياء، ويصبح ما كان يظن أنه مستحيل أو صعب ميسورًا أو ممكنًا.

2ـ كثير من الأعمال الإبداعية مدين لتمتع صاحبه بالقدرة على التفكير المركّز، والذي يعني تشغيل العقل فترة طويلة من الزمن في مشكلة واحدة. بعض الناس يملك قدرات عقلية جيدة، لكنه لا يملك الصبر على سبر أغوار قضية أو مشكلة واحدة، واستقصاء انثناءاتها وتداخلاتها وارتباطاتها والآثار المترتبة عليها... بعض الناس يظن أن التفكير المركز يعني الجلوس في مكان هادئ، والتلبس بنوع من الضغط النفسي وحصر الذهن على نحو كثيف في مسألة ما. وهذا غير صحيح؛ وإن مثل هذا العمل قد يربك العقل أكثر مما يساعده على التفتح والحصول على الأفكار الجديدة.

إن اكتشاف المجهول لا يحتاج إلى التفكير المكثف الذي لا يتخلله أي انقطاع، وإنما يحتاج إلى إبقاء ما نرغب في الوصول إليه في دائرة الاهتمام فترة طويلة من الزمان؛ وكلما حصلنا على أفق أو ملمح قمنا بتسجيله لننسج في النهاية من مجموع ما حصلنا عليه الفكرة أو النظرية المنشودة.

ولذا فإن تحديد زمن للطالب ليصل إلى شيء ما قد يكون مهمًّا، ولكن بشرط أن يكون الوقت الذي نمنحه أكثر من كاف؛ حتى لا يقع في محذور الضغط الذي أشرنا إليه. وشيء جميل أن نسأل أبناءنا وطلابنا بين الفينة والفينة إلى أين وصلوا في مشروعاتهم؛ بهدف تحفيزهم على الاستمرار وبذل الجهد العقلي المطلوب؛ لأنه ثمن لا بد من دفعه للحصول على الأشياء القيمة.

3ـ أكبر مشكلة تحول دون استمرارنا في أعمالنا، هي مشكلة الإخفاق والتعثر. إن هناك ما لا يُحصى من الطلاب الذين تركوا الدراسة في مرحلة من المراحل التعليمية بعد شهرين أو ثلاثة من بداياتهم. وهناك كثير من الطلاب الذين يتركون المدرسة عند ظهور نتيجة أول امتحان أدوه. وهذا في ظني يعود إلى نوعية التربية التي نمارسها في البيوت؛ إذ من الأمثال الشعبية التي يسلِّم الناس بمضامينها قولهم: (الديك الفصيح من البيضة يصيح)، وقولهم: (المكتوب يظهر من عنوانه)، أي إن البدايات تدل على النهايات؛ والذي لا يتغلب على أول تحدٍّ يواجهه قد لا يستطيع التغلب على التحديات التي تأتي لاحقًا! وربما رسخ بعض المُعلِّمين هذا المفهوم من خلال أحاديثهم للطلاب عن جوهر الذكاء والتفوق، فيزيدون الطين بلة!

لا بد أن نبذل جهدًا خاصًّا في تغيير مفهومات الطلاب حول قضية الإخفاق؛ إذ إن تغيير النظرة في بعض الأحيان يكون ذا أثر جوهري في تغيير سلوك الإنسان وردود أفعاله. وينبغي أن يفهم الأبناء أن إخفاق الواحد في امتحان أو مشروع لا يعني نهاية العالم، وليس له أي مؤشرات أبدية، كما يصور ذلك الخيال الشعبي.

إن الإخفاق يعني نتائج غير جيدة، كما يعني عدم إتقان المقدمات والوسائل، أو عدم التكيف مع وضعية جديدة. وإن في العالم ناجحين كُثُراً أخفقوا في محاولات عديدة، لكنهم لم يقنطوا، ورأوا أن كل حالة إخفاق تدل على اكتشاف طريق مسدود أو طريقة خاطئة، أو أسلوب غير صحيح؛ ومن ثم فإن حالات الإخفاق كانت تقربهم دائمًا من طريق الفوز والنجاح.

كم هو الفرق بين مُعلِّم يقول لطلابه: إن رسوب الطالب في بداية الدراسة يدل على أنه لا مستقبل له، وأن عليه أن يبحث عن مهنة يعمل فيها، ويكسب منها لقمة عيشه. وبين مُعلِّم يقول: إن رسوب الطالب في بداية المرحلة الثانوية

أو الجامعية أمر غير مستغرب؛ لأنه لم يتكيف بعد مع الأجواء الجديدة، ولم يتعرف على أسلوب الأساتذة في الاختبارات، وإن كثيرًا من الطلاب الذين رسبوا استطاعوا بعد ذلك أن ينجحوا ويتفوقوا!!

ينبغي أن نشرح لطلابنا أن الإخفاق يدل على وقوع خطأ ما، وأن الناجحين لا يخشون من الأخطاء، ولكنهم في الوقت نفسه يحاولون ألا يقعوا في الخطأ الواحد مرتين؛ لأنهم حين يقعون في خطأ يناقشون أسبابه، ويضعونه في دائرة الوعي حتى لا يتكرر منهم مرة أخرى.

في التاريخ ما لا يحصى من الصور والوقائع التي ولَّدت فيها الصدمات عقولاً ونفوسًا جديدة نسيت الماضي، وانشغلت للعمل في المستقبل.

4ـ يتمتع كثير من الفتيان والشباب بخيال جامح، ويخطر للواحد منهم الكثير من الأفكار التي يظن أنها ذات قيمة كبيرة. وهذا شيء إيجابي في حد ذاته، لكن عدم الوقوف عند بعض تلك الأفكار ـعلى الأقلـ يولِّد في نفس صاحبها شيئًا من الجمود أو الإحباط، كما أنه لا يكتسب منها أي خبرة تمكنه من امتحانها واكتشاف مدى إمكانية الاستفادة منها. ولذا فإن على المربي أن يحث الطالب على أن يتعامل مع الأفكار التي تخطر في ذهنه بشيء من الجدية؛ وذلك من خلال عرضها على أساتذته وزملائه ومناقشتها معهم؛ إذ إن ذلك سوف يجبره على تنظيمها وصياغتها. وهذا في حد ذاته يمنحها شيئًا من النضج والمعقولية، ويضعها في موقف يؤهلها للمحاكمة والاختبار.

كما أن علينا أن نشجع الطالب على تطبيق ما يقبل التطبيق منها، كما هو الشأن في الأفكار العلمية؛ لأن التطبيق وحده هو الذي يكشف عن اقتصادية الفكرة، وعن مدى إمكانية تجسيدها في منتج. أما إذا كانت الفكرة غير قابلة للتطبيق لكونها تتصل بالشأن الإنساني؛ فإننا نشجع الطالب آنذاك على نشرها في مجلة أو إلقائها في محاضرة أو حلقة بحث؛ لأن نشر الأفكار يعرضها للنقد،

والذي يُعد أفضل مساعد على تنقيتها وتصحيحها. ومن الطبيعي أننا إذ نفعل كل ذلك لا نستهدف الحصول على أفكار جديدة فحسب، وإنما نريد قبل ذلك تنشيط العمليات العقلية لدى الطالب، وجعله يشعر بكيانه المعرفي وتدريبه على الإبداع.

5ـ الناس بطبعهم يميلون إلى التصرف وفق الرغبات بعيدًا عن أي قيد. وهم ينظرون إلى كل نظام يُفرض عليهم على أنه عدوان على حريتهم. ولكن الحقيقة أن البشرية مدينة إلى حد بعيد في رقيها وتقدمها لما تم استحداثه من تنظيمات في المجالات المختلفة. وكثير من الناس ينظرون إلى الإبداع على أنه عبارة عن فورات وبوارق فكرية خاطفة؛ ولذا فإنه يتأبى على القولبة والتقنين. ونحن لا ننكر الاستبصارات الطارئة والومضات المفاجئة التي يجد الإنسان نفسه مغمورًا بها، كما لا ننكر ما حصدته البشرية من ثمارها وخيراتها؛ لكن الأعمال الإبداعية ـكما أشرنا من قبلـ ليست نتاجًا لتلك البوارق فحسب؛ ولذا فإن من شروط استثمار الذكاء والتفوق العقلي، ومن شروط تجسيد الإبداع في أشياء ملموسة: تنظيم بيئة عمل المبدع؛ حيث يتم تخصيص وقت للقراءة والاطلاع، ووقت للتأمل والتفكير، ووقت للنقاش، ووقت لإجراء التجارب والمراجعة... هذه الأنشطة أشبه بالأرض الخصبة التي تنتظر الغيث، وأشبه بشبكة الصياد التي تنتظر وقوع الأسماك فيها.

وإن كثيرًا من الذين يتمتعون بإمكانات إبداعية عالية لا يستفيدون منها؛ لأنهم لم يهيئوا البيئة التي يمكن لتلك الإمكانات أن تتفاعل فيها. ومن هنا فإن البيوت التي يسودها النظام في الشؤون اليومية المختلفة تقدم خدمة جليلة لأبنائها؛ حيث تؤسس لديهم النفسية التي تقبل النظام وتتعوده، وتنشأ في أجوائه. المدارس تستطيع إكمال الدور من خلال تنظيم نفسها على نحو جيد، ومن خلال توعية الطلاب بأهمية تنظيم الواحد منهم لحياته الشخصية، وشؤون تعلمه وتثقفه وإنتاجه.

6ـ كما أننا نميل إلى الفوضى فإننا نميل إلى ممارسة الأشياء السهلة، والفرار من وجه الصعوبات والتحديات. وكما كانت البشرية مدينة في تقدمها لتنظيم الحياة؛ فإنها كذلك مدينة للشدائد؛ إذ من الواضح أن العالم كان على مدار التاريخ يتقدم من خلال الأزمات أكثر من تقدمه من خلال الرخاء. التحديات التي يواجهها الطلاب هي التي تصلّب روح المقاومة لديهم، وهي التي تستنفر الطاقات الهاجعة، وهي التي تستحثهم على المزيد من بذل الجهد. ولذا فإن من المهم أن نرسِّخ في نفوس الأجيال الجديدة الترحيب بالعمل الشاق، وكل ما يتطلب جهدًا متميزًا. الكتاب الصعب الذي يفهم الطالب منه 80 ٪ أعود عليه بالنفع والفائدة من الكتاب السهل الذي يفهمه على نحو كامل؛ لأن الطالب حين يقرأ لا يفهم بسهولة إلا المسائل التي يعرفها من قبل؛ وما الفائدة من دراسة أمور يعرفها؟!

النجاح الذي يتطلب من الطالب دراسة 6 ساعات يوميًّا أنفع له من النجاح الذي يتطلب دراسة ساعتين... وهكذا.

نحن نفرق بين نجاح يُعجز الطالب وبين نجاح يتحداه؛ فالنجاح الذي يتطلب القيام بأعمال خارج إمكانيات الطالب نجاح معجز، وهو يلحق أضرارًا بالغة بنفسية الطالب. أما النجاح الذي يتحدى فهو الذي يتطلب بذل جهودٍ شاقة، لكنها ضمن طوق الطالب واستطاعته. وأتمنى أن يأتي اليوم الذي تحويَ فيه كل مدرسة فصولاً للمتفوقين؛ يدرسون فيها مناهج خاصة تؤهلهم للصعود إلى القمة، وتسلم القيادة في المجالات المهمة؛ كي يشكلوا منارًا لتقدم الأمة ونهضتها.

7ـ يشكل الفضول المعرفي والتساؤل أساسًا مهمًّا في بناء العقل؛ إذ هو المدخل الرئيس لتكوين القدرة على المحاكمة العقلية الجيدة، والتي تشكل بدورها القاعدة المتينة للنقد الذاتي والغَيْريّ. يمتاز المبدعون بأنهم لا يقبلون كل ما

يسمعونه على علاته، وإنما يحاولون تقييمه والبحث في تناقضاته وثغراته. والحقيقة أن كل ما ينتجه البشر من أفكار ومفهومات ونظم يظل قابلاً لنوع من النقد، بل محتاجًا إليه. وفي اعتقادي أن على المُعلِّمين على نحو خاص ـ كي ينمّوا الحسّ النقدي لدى طلابهم ـ أن يشجعوهم منذ السنوات الأولى على إلقاء الأسئلة المختلفة، وأن يوضحوا لهم أن إلقاء الأسئلة فن، وأنها تدل على مستوى فهم صاحبها ومعرفته دلالةً لا تقل عن دلالة جواب المجيب. وقد قالوا قديمًا: السائل مُمتحَن.

وإن كثيرًا من المُعلِّمين يتضايقون من كثرة أسئلة الطلاب، ويعدُّون التشاغل بالإجابة عنها مما يُفوِّت عليهم فرصة إكمال المناهج، وهذا غير صحيح، فما يسمعه الطالب في سياق حواري مع أستاذه أهم بكثير من المعلومات الجامدة التي يطَّلع عليها في كتاب. وقد بات من المهم أن نغير رؤيتنا للأجوبة التي نرد بها على الأسئلة الواردة؛ فقد كنا نبتهج بالجواب المفحم المقنع الذي لا يجد السائل معه أي مجال للقول. وأعتقد أن ذلك لا يخلو من الأنانية أولاً ومن ضعف الخبرة ثانيًا؛ فالعلم لا ينمو من خلال الأجوبة المُسْكِتة، وإنما من خلال الأجوبة التي تثير المزيد من الأسئلة. وينبغي ألا نفرح كثيرًا بالطالب الذي يقنعه أي جواب، وإنما بالطالب الذي يفتق الأسئلة، ويطلب الأدلة والبراهين؛ فهذه الوضعية هي التي تدل على الحيوية الفكرية، وهي التي تساعد على تكوين العقل الناقد.

إذا أردنا المساعدة في تكوين خلفية جيدة لدى الطلاب فلنحاول تقوية الملاحظة لديهم، وإثارة اهتمامهم بالتفاصيل؛ إذ من الواضح أننا نرى أشياء كثيرة مهمة، لكننا لا ننتبه إليها؛ ولذا فإننا لا نكتشفها. وصار من المؤكد عند العلماء أن اهتمامنا بملاحظة الأشياء هو الذي يمنحها الأهمية؛ إذ من غير الاهتمام قد لا نعثر على أي شيء خطير. ومن وجه آخر فإننا تعودنا أن ندرك الأمور على الوجه الإجمالي دون معرفة الجزئيات؛ وذلك من آثار الثقافة

الشفاهية التي غذت أجيالاً كثيرة من أبناء المسلمين. وأعتقد أن الإبداع يتطلب دائمًا الخوض في التفاصيل؛ لأنه يساعد على إظهار الذهنية المتفوقة وينميها. ويستطيع المدرس في المرحلة الثانوية وما بعدها أن يطرح قضية ما للدراسة، مثل مشكلة الفقر أو البطالة أو الطلاق... ويطلب من الطلاب أن يفيضوا في نقاشها عارضين لأسبابها، وللعوامل التي تؤدي إلى استمرارها، والنتائج التي تترتب عليها وكيفية معالجتها، والجهات التي ينبغي أن تقوم بذلك، ومقدار تكاليف معالجتها... إلخ.

8ـ لا يصبح الإنسان مبدعًا إلا إذا تمتع بقدر جيد من المرونة الذهنية؛ حيث إن التصلب الفكري يجعل المرء لا يرى إلا في اتجاه واحد، كما أنه يصبح غير قادر على أن يتخلى في أعماله عن الأفكار التي امتلكها وبلورها. المرونة ليست سمة لجهاز التفكير لدينا؛ بقدر ما هي مفهومات تتحكم في موقفنا العقلي من المعلومات والأحداث والأفكار. وهذه المفهومات تتكون ببطء منذ الصغر، وهي كالمفهومات التي تكوِّن التصلب الفكري قابلة للنمو الذاتي إذا لم نضعها في دائرة الضوء.

إن الذي يتمتع بالمرونة الذهنية يستجيب للمعلومات الجديدة، ويتفاعل معها؛ ولذا فإنه يظل قادرًا على التخلي عن المفهومات التي بناها على المعلومات القديمة. وهذه القدرة تكاد تكون ملازمة لكل مبدع؛ كما أن فقدها يشكل معضلة شائكة لكثير من الناس، وهي عامل أساس في تخلف كثير من الأعمال والمنظمات. وإن الطالب بحاجة إلى أن نوضح له على وجه لا لبس فيه أن الإنسان الحصيف لا يستسلم للمعلومات القديمة، كما لا يستسلم للمعلومات الجديدة. وكما أن على الواحد منا أن يكون مستعدًّا للتخلي عن المعلومات القديمة؛ فإن عليه أيضًا أن يتخلى عن المعلومات الجديدة إذا توفر ما هو أحدث منها بشرط قبول المختصين له، واعتبارهم إياه ناسخًا لما سبقه. ويمكن لجميع

المُعلِّمين وفي كل المواد أن يعرضوا المعتقدات والمعلومات القديمة في موادهم، وكيف نسخت بالمعلومات والأفكار الجديدة.

المرونة الذهنية تعني القدرة على النظر من زوايا مختلفة، فالمبدعون يرون الإيجابيات والسلبيات الموجودة في العمل أو المشروع الواحد، كما يفرقون بين المقدمات والنتائج، وبين الأهداف الكبرى والنهائية وبين الأهداف الصغرى التي هي بمثابة وسائل بالنسبة إلى ما هو أكبر منها؛ إنه يملك رؤية مركَّبة وليِّنة.

أما المصاب بالتصلب الذهني فيغلب عليه أن يرى سلبيات أمر من الأمور أو إيجابياته، كما أنه تختلط عليه الأمراض بأعراضها وعقابيلها. ومواد التاريخ والاجتماع والاقتصاد تقدم للمُعلِّمين فرصة ذهبية؛ كي ينمّوا لدى طلابهم المرونة الذهنية. ولكن لا بد قبل ذلك أن يحسِّنوا خبراتهم بهذه المسائل؛ كي يستطيعوا الوقوف على تطبيقاتها في المناهج والمواد الدراسية.

المرن ذهنيًّا يستطيع التراجع عن بعض طروحاته، كما يملك القدرة على الشك في أسلوبه ووسائله؛ لأنه يعلم أن كل ما أنتجه عقله مبني على اجتهاد، والمجتهد يخطئ ويصيب. المُعلِّمون من خلال تراجعهم عن أخطائهم التي وقعوا فيها أمام الطلاب، ومن خلال شرحهم للقصور البشري في إدراك الحقائق؛ يشجعون الطلاب على سلوك هذا المسلك الحميد.